كيف تُحقّق الإحسان؟

إعداد الشيخ/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله عالم السر والنجوى المطلع على الضمائر وكل ما يخفى.

أحمده سبحانه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد أفضل من أحسن العمل وراقب مولاه في السر والعلن.

وبعد: فالإحسان في اللغة: ضد الإساءة، وهو مصدر أحسن إذا أتى بما هو حسن.

واصطلاحًا: الإتيان بالمطلوب شرعًا على وجه حسن. وقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإحسان في حديث جبريل المشهور حين سأله عن الإحسان؟ فكان جوابه صلى الله عليه وسلم: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (مسلم: (٨)). فبيّن صلى الله عليه وسلم معنى الإحسان، وهو أن يفعل الإنسان ما تعبّده الله به كأنه واقف بين يدي الله، وذلك يستلزم تمام الخشية والإنابة إليه سبحانه.

ويستلزم كذلك الإتيان بالعبادة على وفق الخطة التي رسمها رسوله؛ لأن من مقتضى الإيمان بالله تعالى: الإيمان بأنه تعالى مُطلع على جميع الخلائق يعلم أحوالهم، ويشاهد تصرفاتهم وأعمالهم، ويسمع أقوالهم لا يفوته شيء من ذلك ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر؛ قال تعالى: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» (يونس: ٦١).

وقال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ» (آل عمران: ٥). «شَيْءٌ» نكرة في سياق النفي في قوله: «لا يخفى» فتعم كل شيء، فكل شيء لا يخفى على الله في الأرض ولا في السماء، وقد فصّل الله هذا في قوله تعالى: «وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» (الأنعام: ٥٩).

تفيد هذه الآيات وغيرها من آي الكتاب العزيز، إلى جانب ما تقرّره من شمول علم الله وكماله واطلاعه ومراقبته وعظيم قدرته ورعايته وهيمنته: فهي تفيد إلى جانب ذلك تعليم عباده بأن يراقبوا ربهم ويستحضروا قربه ويستشعروا على الدوام بأن الله سبحانه مُطلع على حركاتهم وسكناتهم، وعلى أقوالهم وأفعالهم وما يختلج في صدورهم: «وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (الملك: ١٣-١٤).

ويتأكد ذلك الاستشعار عندما يشرع المسلم في عبادة من العبادات بحيث يقوم فيها بين يدي خالقه ومولاه مقام من آمن واستشعر بأن الله تعالى يراه أو كأنه هو الذي يرى الله سبحانه. وهذه أعلى درجات السلوك مع الله تعالى؛ لأن العاقل إذا تذكّر أن الله رقيب عليه: أحسن عمله؛ رغبةً فيما عند الله من الثواب للمحسنين، وخوفًا من العقاب الذي

Upload by : altawhedmag.com

أعدَّه للمسيئين، وقد قال الله تعالى: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى» (النجم: ٣١).

ومن رحمته وفضله تعالى: أن جعل الجزاء من جنس العمل، ومن ذلك أن جعل ثواب الإحسان إحسانًا: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ» (الرحمن: ٦٠)، فمن أحسن عمله أحسن الله جزاءه، وقد أوضح عز وجل في كتابه العزيز جزاء المحسنين وأنه أعظم جزاء وأكمله؛ فقال تعالى: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» (يونس: ٢٦)؛ وهذه الآية فسَّرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب بأن الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله سبحانه. (مسلم: ١٨١)؛ ولا يخفى ما بين هذا الجزاء وذلك العمل الذي هو الإحسان من المناسبة؛ فالمحسنون الذين عبدوا الله كأنهم يرونه، جزاؤهم على ذلك العمل: النظر إليه عيانًا في الآخرة.

على العكس من ذلك الكفار الذين طبع على قلوبهم فلم تكن محلاً لخشيته ومراقبته في الدنيا، فعاقبهم الله على ذلك بأن حجبهم عن رؤيته في الآخرة، «كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ» (المطففين: ١٥). كما أن جزاء الذين أحسنوا الحسنى فإن عاقبة الذين أساءوا السوأى كما قال تعالى: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى» (الروم: ١٠).

ولمزيد عناية الإسلام بالإحسان وعظيم منزلته، نوَّه عز وجل بفضله، وأخبر أنه يحب المحسنين، وأنه معهم، وكفى بذلك فضلاً وشرفًا؛ فقال عز وجل: «وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (البقرة: ١٩٥)، وقال: «وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» (العنكبوت: ٦٩).

وقد ضمَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم جوابه عن الإحسان بيان السبب الحافز على الإحسان لمن يبلغ هذه الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة؛ ألا وهو تذكير فاعل العبادة بأن الله مُطَّلع عليه لا يخفى عليه شيء من أفعاله، وسيجازيه على ذلك؛ إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

فعلى العبد أن يأخذ نفسه بمراقبة الله تعالى، ويُلزمها إياها في كل لحظة من لحظات عمره، حتى يتم لها اليقين بأن الله مُطَّلع عليه، عالم بأسراره، رقيب على أعماله، قائم عليه وعلى كل نفس بما كسبت، وهذا أرفع مراتب الدين. وقد مدح الله الذين يخشونه بالغيب؛ فقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» (الملك: ١٢)، وقال تعالى: «إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ» (يس: ١١).

وقد عدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية الله في السر والعلانية من المنجيات؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى». (الصحيحة: (١٨٠٢)، وصحيح الجامع (٣٠٣٩)). فخشية الله في السر والعلانية أساس عمل المسلم كله ومعاملاته؛ لأنه بإيمانه بالغيب سيعمل كل خير طمعًا في ثواب الله، وبمخافة الله بالغيب سيتجنب كل سوء، وقد ذمَّ الله أولئك الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، فقال تعالى: «يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا» (النساء: ١٠٨).

فعَظِّم -أخي- حُرمات الله في السر والعلانية؛ «ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ» (الحج: ٣٠)، واحذر كل الحذر ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضًا فيجعلها الله سبحانه هباءً منثورًا». معنى: هباء: التراب الذي تطيره الريح، وقد ينبثّ في الهواء فلا يبدو إلا في ضوء الشمس. ويقال: ذهب عمله هباءً أي هدرًا.

قال ثوبان: يا رسول الله، صفهم لهم، جلِّهم لنا؛ ألَّا نكونَ منهم ونحن لا نعلم. قال: «أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم إذا خلَوْا بمحارم الله، انتهكوها». (ابن ماجه في كتاب «الزهد» (٤٢٤٦)، الصحيحة: (٥٠٥)).

وحسبك قول القائل:

إذا ما خلوتَ الدهر يومًا فلا تقل خلوتُ
ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما يُخفَى عليه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب
وأن غدًا لناظره قريب

اللهم ارزقنا خشيتك في السر والعلن.

Upload by : altawhedmag.com